عزت القمحاوي

مدينة اللذة

رواية

HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

بعد ثلاثة أيام من وصولك ستبدأ المدينة فى سؤالك عن اسمك وبلدك والغرض من الزيارة. سعيد إن تذكرت، ولكنك ستكون فقدت الرغبة فى الكلام، وعلى كل، فان هذه المدينة تطرح السؤال كاحدى عادات الضيافة العريقة، دون أن تنتظر جوابا؛ فخلال تلك المدة ستتجلى لك إلهة اللذة بقارب السماء، الهلال العظيم الرابض بين ساقيها المدلاتين من قمة جبلها. ولسوف تسأل نفسك بضيق حقيقي: ما الذى هنا يطفئ الروح ويؤجج الرغبة؟! ولن تجد فى هذه المدينة المتشامخة سوى المزيد من صمتها، والمزيد من جنونك.

على مسيرة سبعين يوما ستلوح لك هذه المدينة. بيضة عملاقة أفلتتها مخالب رخ وسط بحر من الرمال. وستُقشِّر حتما هذه البيضة لتفاجئك قصورها البيضاء بأسطحها الهرمية المغطاة بالقرميد الأحمر، وأسوارها العالية المتوجة بالقرميد الأخضر، وشوارعها الفسيحة، وميادينها الضخمة الموحشة، وسياراتها الفخمة المسرعة، وأجهزة التكييف التى تهدر متشبثة بمقاعدها على الجدران.
وقد ينخدع البعض بتلك النصاعة فيتصور المدينة مجرد مجسم انشأه على عجل مهندس ديكور بارع من أجل تصوير شريط سينمائى ستتقوض بمجرد إنجازه، لكن من اعتاد النظر الى العمق سيرى المدينة فى رسوخها القديم، ويستمع ـ من تحت صمتها ـ الى صخب التراتيل والتأوهات ونداءات الغواية، ويرى ـ فى الميادين التى تبدو لعابر خالية ـ القواعد الضخمة لتماثيل لا مرئية لأعضاء اللذة، فى أشكال لحيَّات منتصبة، وأهلِّة متوهجة، وشموع تسيل منها نار الرغبة، ونوافير على شكل تفاحات مقضومة تدفق ماءها.
وأهل هذه المدينة سعداء، وان سكن وجوههم صمت وسكون يشبه العبوس، وستبقى هذه قضية محيرة لمثلك ممن اعتادوا قراءة الرموز بديلا عن الحقائق، الكلام دليل الحياة، التبسم دليل السعادة، الصخب دليل الوجود. بينما هؤلاء يعيشون الحقائق التى تنتفى معها الحاجة الى الرموز.
الأبواب ذاتية الحركة تفتح تلقائيا، فواكه الصيف والشتاء حاضرة قبل أن يتحرك لعاب المشتهى، العسل المصفى واللبن. ولحم الخيل والآيل والإبل، والخنزير، وأجود أنواع النبيذ، يشربون ويأكلون منه، فلا ينقص الا بمقدار ماتُنقص الملعقة النهر.
وهم مجبولون على ممارسة اللذة، ويقال إنهم يمتلكون نسخا متعددة من الأجساد، كلما أصاب الوهن أحدها تقدم الآخر، وقد تمكن مراسل شبكة تليفزيونية من التسلل الى أحد قصور المدينة وصور شريطا كاملا بكاميرا خاصة استطاعت رصد انطفاء الأجساد وتخلق الأخرى من رمادها كما تخرج النبتة من الطين.
ويقولون إن اعتلاء السادة للسيدات ليس من تقاليد هذه المدينة، بل هو من مهام العبيد الذين يمتلك الواحد منهم عددا من الأسلحة يماثل عدد أهّلة سيدات القصر، كما تمتلك الأمة الواحدة أهلة بعدد أسلحة سادتها، وأحيانا ما تمتلك الإماء أهلة كبيرة بما يتناسب وحجم الأسلحة الصناعية التي تتمنطق بها السيدات المسترجلات، ويمتلك العبيد أسلحة تناسب أقمار السادة المتأنثين.
ولن يكون بوسعك أن تحيط بأجساد تخرج ضوءًا يخطف الأبصار، فلا تعود ترى إلا برق اللذة الحارق، وليس فى وسع أحد أن يصف لك نعومة النساء التى لا تعرف الترهل أو الوهن، لأنهن لا يحملن، ولا يلدن، فالأطفال كانوا ينبتون من الأرض التي ترويها إلهة اللذة بمائها المقدس، عندما أصاب الأرض الجدب بسبب كثرة الغرباء فى المدينة بدأوا فى الاستعانة بأرحام الإماء، وبماء العبيد لريها، لأن السادة لم يوطنوا أنفسهم على تلك المشقة.

ولن يمضي وقت طويل
حتى تبتلع الشوارع
ما فيها من حقائق وصور

ولسوف يفاجئك فى قلبها ميدان يقاوم صمت الحياة بصخب الموت.
"المحيا" أو "سُرَّة الإلهة" اسمه الأشهر، وهو الموضع الذى عثرت فيه الإلهة عندما رأت سُرَّتها للمرة الأولى. هذا التفسير سيبادرك به الجميع قبل أن تطلبه ليخفوا تفسيرًا آخر لأصل التسمية يتمسك به عرافٌ أعمى لا يكف عن الدعاء واستنزال العقاب على المدينة التي حولت معبد الالهة المبجلة الى سوق.
يقول العراف: كانت المدينة حنونًا، وكانت بائعات الهوى المقدسات يقدمن عن طيب خاطر اللذة للغرباء الذين لا يتعين عليهم سوى إلقاء قطع العملة الصغيرة فى إناء من المرمر يشبه سُرَّة الإلهة.
ولن تجد الوقت لتستوثق أو تحزن على ضرير يبكى، عندما تعشى عيناك من ألوان الطيف التي ترسلها محالٌ متضامة من الكريستال فتنعكس على أرضية الشارع الممهدة بالقصدير الصقيل المتموج.
الصور التى تسعى بين واجهات المحال ستبدو لك حقائق دالة على نفسها أحيانًا وأحيانًا ستبدو كظلال لحقائق أخرى فى مكان مجهول. وسترى الصور المتتابعة على الأرضية القصدير بلا أى اختلاف يميزها عن تلك الساعية بين الواجهات، ولهذا فإن القانون لا يعاقب على القتل هنا، حيث يتعذر على قائد السيارة تمييز الحقائق من الظلال، وهو ما يتعذر كذلك على الشهود وسلطات التحقيق.
حقيقة وحيدة سوف تسوطك: النساء يدرن في أسرابٍ مضمخاتٍ بعطر داعر، من قوة رائحته لن تعود تشمه، وانما ستسمع وشيش انتشاره من أجسادهن، وستراه يتكاثف فى النهاية ليصنع خيمة كثيفة تُغلِّف المدينةَ، وتضايق أرواح الصور فى صعودها.
وسنفترض أنك كنت واحدًا من أولئك الصاخبين فى تلك اللحظة، سترى السيارات المسرعة تتوقف فجأة لتطيِّر الأوراق الصغيرة أسرابًا فوق أسراب النساء. وسترى الأوراقَ تهمد سريعًا لتستريح فوق الملابس، وستمتد الأيدى تقبض على الأوراق الطيور، تتحسسها بدفء وتقرأ خلسة أرقامَ الهواتف المدونة عليها.
ولن يمضي وقت طويل حتى تبتلع الشوارع ما عليها من حقائق وصور، وتتجمع السيارات التى كانت مسرعة فى الساحة المظلمة خلف المحيا، وتقف متجاورات الرؤوس كقطيع من الخراف، ولسوف تشرع هوائيات التليفونات المحمولة تستقبل صيدها من النساء الذى علَّقته الأوراق الطيور.
وستجد نفسك وقد انقلبتَ أذنًا، وهو تحور بسيط تفرضه طبيعة اللحظة، وستسمع كيف تكون لذة الأذن عندما ترى المرأة المستلقية فى فراشها عارية، تصف للجالس في سيارته تكور رمانها، وصلابة عمودي معبدها، وحجم هلالها، وسترى انفجار القطيع باللذة، وتشظيه، ثم اجتماعه مرة

أخرى واصطفاق الأبواب العنيف، والحركة السريعة التى تجمعهم مثنىً مثنى فى سيارات تنبسط مقاعدها لتصير أسِرّة ولن يكون بوسعك ساعتها الا أن تسمع شهقاتٍ مكتومةٍ داخلَ سياراتٍ تهتز.

ولبثت هكذا سبعين
ألف سنة تتأمل جسدها
حوشي الجمال
تأمّل هذه القصور الكبيرة؛ فقد ترى خفتها القديمة، عندما كانت مجرد خيام، قبل أن تنمو ويتكلس نسيجها، حتى صارت قصورًا فسيحةً.
هذا ما يقوله بعضهم، ولستَ ملزما بتبنى وجهة النظر هذه؛ فهى ليست إلا إحدى التفسيرات الممكنة حول نشأة المدينة التى يكتنف تاريخَها قدرٌ عظيمٌ من التشويش والغموض.
يؤكد بعض المعمرين على أن المدينة بناها الجن، ويستشهدون على ذلك بصمتها المروِّع واستقامة شوارعها التى تميزها عن المدن التى يبنيها البشر، إذ لا يعرف الجن فضيلة التسكع التي من أجلها ينشىء البشرُ الحارات الملتوية بما تحوى من خانات وخمَّارات، وبما تؤوى زواياها من باعة وسماسرة وقوادين ومخبرين ومثقفين وحواة.
يقولون إن آمر الجن فكَّر فى بنائها عندما استعصى عليه قلب بلقيس المغرورة بمُلكِها، وأنه أرادها بسيطة الى درجة التجريد وموحشة؛ لكى تفيق الملكة من سكرة المُلك وتستسلم له إذ يُطلعها على فنون اللذة. وبعضهم يقول إنها مدينةٌ فريدةٌ. ويؤكد آخرون أنها متعددة، وأن لها نظائر كثيرة على سطح الأرض وفى طبقاتها السفلى، إذ أن آمر الجن أعطى إشارة البدء ثم أغفى على عصاه؛ فاستمر الجن فى عملهم، وكلما انتهوا من مدينة شرعوا فى غيرها. ولم يتوقفوا إلا عندما رأوا رأسه تسقط بعد أن نخر النمل العصا.
ومن بين أكثر الروايات رواجًا حول تاريخ المدينة ماجاء بالأثر، أنها ظلت خالية مقدار سبعين ألف سنة، كانت خلالها إلهة اللذة على قمة الجبل المواجه تنتظر فى سرير، له سبعون ألف قائمة، وقد استحمت وتعطرت، وزينت سريرها بالشراشف المخضبة بأجود أنواع العطور والزيوت، وعندما أحست بالضجر، نزلت الى شوارع المدينة تداور حرقة الشوق إذ تُمشِّى رجليها؛ فاذا بها تنظر جمالها للمرة الأولى فى مرايا المدينة المصقولة، ولبثت سبعين ألف سنة أخرى تتأمل جسدها حوشِّى الجمال مستسلمة لمداعبات الريح حتى فاض ماؤها فغمر المدينة، ومنه خرجت كائنات لها ملامح البشر. فرحت عندما رأتهم يتأملون عريها بدهشة لا تشبع، وانسحبت الى قمة جبلها، تتأمل فى دلال ما صنعت.
ومكثت سبعين ألف سنة، ثم نظرت فرأت الرغبة تنسحب من مخلوقات المدينة، لأنها ـ على حرقتها ـ كانت رغبة غُلفًا مبهمةً، زاحمتها الحيرة، ورأت الإلهة أن ذلك غير حسن، فقامت وتبدت مجددًا؛ فمنهم من شدَّته عيناها فصار ناظرًا، ومنهم من رأى أسنانَها فصار عاضًا، ومنهم من رأى شفتها فصار بوَّاسًا ومنهم من رأى يدها فصار ملامسًا، ومنهم من رأى هلالَها فصار ناكحًا.
وغمرت السعادةُ الإلهةَ، وأعجبها ما صنعت فلم تعد إلى سريرها، وإنما افترشت حافة الجبل، مرسلة ساقيها الإلهتين، المتحدتين فى الأعالى تحتضنان هلالها الفاتن، ينادى: كونوا عبادي.. كونوا سادة، ومن عَرقِ أجسادكم أخلق لكم عبيدًا يقاسمونكم حرارة اللذة.

لم يكن يعرف شيئاً عن المدينة،
التي رغم خلائها المخادع، تخفي سراديبَ
لتربية وتسمين الغلمان

عاشت المدينةُ مسيجةً بأسرارها. يبعث ذكرُها الرهبةَ فى القلوب، ولم يكن أحد يعرف سر امتناعها على الغزو حتى مغامرة القبَّار.

كان السلطان الأعظم الذى لم يُهزم له جيش يستعرض مع قواده حدود مملكته التى امتدت من اللهيب إلى الجليد عندما لمح نقطة سوداء وسط المملكة المترامية. سأل عن تلك النقطة فلم يظفر إلا بصمت القواد الذين قوضوا الممالك وطووا السهول والجبال وأخضعوا البشر والوحوش.

وأعاد السلطان سؤاله فتبادل القواد النظرات الكسيرة، ثم خروا بين يديه ساجدين. عند ذلك أشار السلطان فقاموا وألقوا تحت قدميه أنواطهم ونياشينهم وألواح الشرف التى يحملون، ثم أمر بهم فجُردوا من بزاتهم وأُلبسوا أسماء نساء ساروا بها عراة الى موطن الجليد لتخلد أجسادُهم فى مشهد للذل لا تنساه الأجيال. وتفرغ السلطان بنفسه لتدريب جيشٍ من ألف ألف رجل وألف ألف حصان، خرج بنفسه على رأسه مسيرة سبعة أيام، ثم أسلم قيادته لأشجع ابنائه فى احتفال مهيب، وأمره أن يعود بمفتاح المدينة وإلا فليمكث بجيشه على قمة أحد الجبال حتى تتخاطف النسورُ أشلاءهم.

بعد سبعين يومًا كان الجيش على أبواب مدينة لا أثر فيها لحياة. جابوا الشوارع بالأقواس المشرعة اتقاء لخدعة قد تفاجئهم فلم يروا أثرًا لمقاومة حتى وصلوا حديقة شاسعة مسيجةً بسياجٍ قصيرٍ من نبات أذن الفيل لا يتعدى ركبة الإنسان.

أمر القائدُ جنوده باجتياز السياج بغية الراحة وإطعام الخيول المجهدة ففوجئوا بالسياج يطير فى وجوههم وقد تحول إلى صقور لم ير القبَّارون شراستها من قبل، التهمت عيون الفرسان والخيل.

ويقال إن القبارَ مات من فوره عندما وجد نفسه فى مواجهة أحب أبنائه إليه وألف ألف رجل وألف ألف حصان وقد انفتح فى كل وجه من وجوههم قبران. تبع القائدُ الأعمى مولاه إلى الموت بعد أيام قليلة، لا بسبب الهزيمة وإنما بسبب ما لحقه وجنوده ـ الذين يحترمون نساءهم أيما احترام ـ من عار عندما اتهمه كاهن عجوز بأنه دخل الحديقة من أجل هدف لا يليق بفرسان القبار.

والحقيقة أن القائد لم يكن يعرف شيئا عن الحديقة، التى ـ رغم خلائها المخادع ـ تخفى سراديب لتربية وتسمين الغلمان بعضهم ينتزعهم اللصوص أطفالاً من صدور أمهاتهم ثم يحملهم التجار من المدن البعيدة، والبعض يهبهم ذووهم تقربًا إلى إلهة اللذة، وبعضهم تلدهم البغايا المقدسات. هناك يُحممون بالزعفران والكافور ويتطيبون بالمسك وتدلك أجسادهم، ويغذون على ألبان النوق الجيدة وأفضل أنواع العسل والتمر. وفى كل صباح يرتدون قمصانا معطرة من الحرير ويخرجون إلى طقس العبور؛ حيث يمضون صفًا على شبكة مشدودة بين جدارين. الذين يسقطون من بين فتحاتها يُردون إلى مكانهم فى المزرعة، أما من تحجزه مؤخرته عن السقوط فيتم تخليصه من الشباك ويساق إلى غرف إزالة الزغب والتحميم والتدليك والتزيين ثم يُدفع به عبر سرداب ينتهي في قصر الأمير.

ويقال إن هناك سراديب أخرى تتصل بقصور السادة من ذوى المكانة الخاصة، الذين يقعون على الغلام حتى تزهق روحه، فيُحمل إلى المحرقة عبر نفق آخر، حيث يُحرق ويذرَّى رماده بينما يتلو

الكهنة نصوصًا مقدسة تطِّوح بالدخان والرماد إلى العالم الآخر ليكون فى خدمة الأسلاف.
وعلى كلٍ؛ فذاكرة المدينة تحتفظ بذكرى هزيمة جيش السلطان الأعظم، كآخر هزيمة لجيش فاتح.
رغم أن الغزوات لم تتوقف، إلا أن الغزاة تعلموا ألا يحملوا الأقواس أو السهام وإنما علب اللبان والبطاطس المحمرة والمياه الغازية وأفلام الجنس، يعيثون في المدينة دون أن يجرؤ أحدهم على الاقتراب من المزرعة، باعتبارها مكانًا مقدسًا.

فجأة، ينتبهون إلى أن نهر الدم
الذي أجروه
لا يلوث الأيدي

ومهما تتابعت الغزوات على المدينة، فإن أحدًا من الغزاة لا يستطيع التبجح بأنه انتهك حرمتها وجاست أقدامه قصر أميرها القائم فى شموخ على ربوة عالية شرق المدينة يستقبل الشمسَ الوليدةَ كل يوم ويذبها إلى شعبه المحبوب.

ولن تر شَرَك عنكبوت مثل قصر يبدو ـ لعابر ـ كما لو كان مجردًا من الحماية.. ولن يلزمك سوى قدرٍ ضئيلٍ من التأمل لتستشعر الهيبة التي يبثها القصر الشرك.

من البعيد يبدو القصر هرمًا من الخضرة يحمل فى ذروته بناءً مذهبًا تنعكس فوق جدرانه الشمس فى حزم من الدفء والنشوة. فإن اقتربت سترى، أول ما ترى، أسوارًا عالية من البللور المتوج بالذهب، فإن مددت بصرك يخترقها، سترى بستانًا ضخمًا من الرمان يلهو فوق أشجاره آلاف الغلمان، تحاكى خدودهم الوردية حمرة الثمار، ويومض عرى أجسادهم من بين خلل الأشجار مثل كشَّافات حرس لا ينام، بينما يتقاطع تناغيهم مع أصوات الببغاوات فى لحن يتصاعد رشاشه المدوّخ ليسقط رذاذًا زلقًا على أسطح المدينة.

وينتهى بستان الرمان بسور آخر حول أرض أكثر ارتفاعا لبستان من التفاح وقد استلقت تحت ظله آلاف من الغانيات العذراوات من المغنيات وضاربات العود وعازفات القانون والكمان، وقد تصاعد وهجهن عمودًا من نشوة تصل ما بين الأرض والسماء.

فاذا ما انتهى بستان التفاح رأيت سورًا آخر لبستانٍ من الكروم، أكثرَ علوًا، ينتشر تحت تعريشاته آلاف الخصيان من خبراء التجميل والمقاييس والموازين يتدربون على نماذج من صلصال، لأن الوزن والقياس مهمة شاقة؛ فالأمير لا يطلب الطول أو العرض نفسه أو الاستدارة فى كل مرة، بل إن الأمر يعتمد على حالته النفسية التى ترتبط فى الوقت ذاته بمواضع النجوم، وحجم القمر فى السماء واتجاه الريح، وصعود وهبوط الأسهم فى البورصات العالمية، كما أن ما يجلب اللذة فى الصباح ليس نفسه ما يجلبها عند الظهيرة، ويختلف فى المساء.

وفى مقابل هذه المشقة يتمتع الخصي المُثمِّن بنفوذ ضخم بين النساء والغلمان إلى الدرجة التى تُمكِّنه من حرمان زوجة رئيسية من الخلوة مع الأمير.

بعد مزرعة الكروم سور آخر يُسيِّج مصطبة أعلى تتزاحم فوقها حشود الفتيات والغلمان والعبيد من جامعى اللذة فى جميع مستوياتها وأنواعها، يؤدون عملهم فى تبتل واضح وفى صمت غريب، بحيث لن تسمع غنجًا أو إعرابًا أو نخيرًا وإنما يكتمون هذا كله مع ماء الحياة المتجمع ليصعد فى أنابيب إلى القصر الشامخ على المصطبة الأعلى ويتميز بناؤه ببساطة عجيبة، حيث لا يضم سوى بهو كبير يحوى كرسي الأمير وسريره. يجلس أو يستلقى وحوله عبيده يمّروحون عليه بمراوح من ذهب، وحول البهو تتوزع أجنحة زوجاته وسراريه الرئيسيات مثل بتلات الوردة، فاذا ماجاء دور إحداهن، حسب استدعاء خبراء اللذة الخصيان، تحركت فى موكبها، يتقدمها سبعمائة من الخصيان، ويحف بها سبعمائة من العذراوات ويتبعها سبعمائة من الغلمان، ويحمل ذيل ثوبها وصيفاتها السبع الرئيسيات اللاتى لا يفارقنها حتى في سرير الأمير.

ويستطيع الأمير أن يضاجع من شاء من النساء والغلمان، دون كلل وفي تتابع لا يتوقف إلا بمقدار ما ينتهى الخصيان من تغيير شراشف السرير، حيث يتقدم أول طابور الخصيان لينزع القديمة ويثّبت مكانها الأخرى بمهارة ودربة نادرين. وتستلقى المرأة أو ينكفىء الغلام، ولا يفعل الأمير سوى أن يخرج سلاحة وينطق بكلمة تصير حكمًا يُفجِّر مخزون اللذة الذى جمعه العبيد والإماء فى دأب واخلاص شديدين، وتنطلق تأوهات النشوة عالية تجدد الوحشة والرغبة.

وربما يسأل متعجل مثلك: إذا كان أهل المدينة والغزاة يحفظون تصميم القصر على هذا النحو، ويعرفون أسراره كما يعرف أحدهم خطوط راحته، فمن أين تأتي هذه الرهبة؟

الأمر بالطبع ليس على هذه الدرجة من البساطة؛ فالأسوار تضم سبعة آلاف من المزاغل، لا يقف فيها جنود متثائبون، بل كهنة متيقظون مع صقورهم. فإذا ما رأوا غبار خطر قادم أسدلوا بتعاويذهم السحرية الظلام للحظات كافية لإخفاء القصر، وإقامة آخر في المواجهة، له نفس الأسوار، نفس الاشجار، نفس الاجنحة، يدخله الغزاة بلا مقاومة، يغتصبون نساءه وغلمانه، يقتلون أميره وعبيده، يأكلون وينهبون ما تقع عليه أيديهم وفجأة ينتبهون إلى أن نهر الدم الذي أجروه لا يلوث الأيدي، وأن ما أكلوه لم يسد جوعًا. وما نهبوه تحول في أيديهم إلى قبض ريح وأن النساء والغلمان الذين أنهكوا قوى الجند لم يكونوا سوي وهم، مجرد صور أنتجتها مخيلة الكهنة المخلصين لسيدهم.

وقبل أن يجدوا الفرصة للدهشة أو الندم ، يفاجأون بأنهم صاروا في العراء أمام القصر القديم الذي عاد إلى مكانه راسخًا وتصبح عيون الفرسان الخائري القوى مجرد مكافأة بسيطة وشرابًا لذيذًا لصقور المزاغل اليقظة.

وكانت نظرة بسيطة
إلى تمثال الإلهة كفيلة
بدفع النساء إلى أحضان الكهنة

لن تجد من يصارحك بحقيقة مشاعره تجاه هذا البناء الذى يقف فى صرامة واثقة، ولكنك تستطيع أن تخمن حجم ما تنطوي عليه نفوسهم تجاهه من اختلاط مشاعر، حيث يتمازج التقديس بالخوف والحب مع الغضب.

ويقول المعمرون الذين تفرغوا لحفظ ورواية سيرة المدينة إنها كانت تسعد باستقبال الإلهة المحبوبة فى جولتها السبعية، التى كانت تقوم بها كل سبعة أيام أو سبعة أشهر، أو سبع سنين، أو سبعين أو سبعمائة أو سبعين ألف سنة، ولم يكن فى عدم التحديد هذا أية مشكلة، بل وسيلة للتسلية لا تقل فى روعتها عن ممارسة اللذة، ولا تحمل سوى ألم صغير يكبر بمقدار ما يكبر الأمل فى رؤية كُليَّة اللذة فى عربتها التى يجرها سبعون ألف حصان من ريح.

وكان ترقب وصول الإلهة في كل لحظة هو ما حمى حالة السلام بين عناصر المدينة.

المساواة تمتع بها السادة جميعا، إذ كان كل المطلوب منهم أن يستمعوا للتوجيهات المباشرة من الإلهة المتخلقين من مائها المقدس، حتى قام هذا البناء الذى يخضع تاريخه لقدر من التشويش لا يقل عن ذلك الذى يكتنف تاريخ المدينة ذاتها.

يقول بعضهم إن الالهة ـ لما أحست بالوهن ـ أمرت بإقامة هذا البناء ليكون استراحة تلتقط فيها أنفاسها. فور وصولها من رحلة النزول الشاقة استعدادًا لجولتها في شوارع المدينة، ثم ما لبثت أن أعجبتها الاستراحة، أو ازدادت وهنًا، فألغت الجولة مكتفية بعناء رحلة النزول من قمة الجبل إلى الاستراحة.

وهناك من يؤكد الرواية على هذا النحو، ولكنه يختلف فى السبب الذى من أجله ألغيت الجولة، يقول: ليس الوهن، بل إن الإلهة رأت أن ظهورها صار مشكلة، إذ بدأ يقلل من الهيبة الواجبة لها؛ خاصة بعد أن تكاثر الغرباء، ورأت المدينة أجيالًا اختلطت فيها دماء الغرباء بدماء السادة والعبيد.

وأيا كان السبب، فالثابت ـ يقولون ـ إن الناس بدأوا يتقاطرون إلى هذا البناء للاستماع إلى تعاليم الإلهة التي صارت شيئًا فشيئًا عامة ومقتضبة، تصدرها من وراء ستار. وقد ظلوا على إخلاصهم واستمروا فى الذهاب بدافع من الإيمان الخالص، حتى بعد أن كفت الإلهة عن التجلي إثر "حادث مؤسف".

ولن تجد من يخبرك، ما الحادث، أو ما مصدر الأسف فيه، لأن الألم الذى خلَّفته المفاجأة، كان أكبر من أن يسمح لتفاصيل بالبقاء إلى جواره. استيقظ أهل المدينة يومها على تمثال غير متقن للإلهة أقامه، على عجل، خدم الاستراحة، وأعلنوا أنها لن تتجلى بعد اليوم، وقد كلفتهم بنقل أوامرها إلى أهل المدينة وتلقي ضراعاتهم إليها.

ولم يكن أمام الجميع إلا الامتثال لقدرة الخدم، الذين تعلموا فنون السحر وصاروا يُعرفون تبجيلا باسم «الكهنة» وقد بلغوا من المهارة الحد الذى يجعلهم قادرين على جلب الظلام فى أية لحظة وإدامة الليل، وجلب السحب، وإثارة العواصف الملتهبة التي لا تغادر المدينة إلا وقد خلَّفت من الجثث فى الشوارع مالا يخلِّفه جيش من الغزاة الظامئين للدم.

بدأوا يفرضون على الناس القرابين والتقدمات من الغلمان والعذراوات، وكان من لا يجد ما يقربه يحزن، ويحاول أن يعوض ذلك بقرابين من لحوم الماعز والضأن والإبل والنبيذ والتمر وتفاح الرغبة.

ويقال إن الكهنة استطاعوا بفضل قدراتهم غير المحدودة على السحر والتحالف مع الأمير ـ الذى كان فى الأصل كاهنا بارعا ـ إخضاع المدن والممالك المحيطة بالمدينة؛ الأمر الذي بلغ بالتقدمات حجمًا غير مألوف، كأن يتم اقتسامه بين القصر والاستراحة التى كانت تضم آلاف الغرف تسكنها البغايا المقدسات وواهبات النذور الأكثر جمالا، وكانت نظرة بسيطة الى تمثال الإلهة كفيلة بدفع النساء إلى أحضان الكهنة، الذين تخصصوا فى ممارسات مختلفة حمل كل منهم اسما يدل عليها.

ويؤكد بعضهم أن الاستراحة التي تبدو الآن بالغة البؤس كانت أعلى بناء فى المدينة، وبمرور الأيام تصاعد نفوذ الأمير وأخذ قصره فى الارتفاع والاتساع وتراجع ثراء الاستراحة وتقلص بناؤها بعد أن فضَّل العديد من كهنتها العمل فى قصر الأمير.

وهناك من يؤكد أن الاستراحة على حالها منذ البداية، وينفي أن تكون الإلهة من أمرت بمثل هذا البناء الذى يفتقر الى الفخامة، ويقولون إن آمر الجن لما فكر في بناء المدينة أمر أول ما أمر ببناء هذا المكان الخانق، سجنًا لمن يتراخى في تنفيذ أوامره من الجن. وكان البدء بالسجن هو الشىء الوحيد الذى يجمع بين مدينة شيدها الجن والمدن التي يشيدها البشر.

ولن يغير اختلاف الروايات شيئا من واقع البناء المُحيّر، الذى يجعلك، تتساءل عن السر الذي تنطوي عليه تلك البساطة المفرطة. وستُذهل من قدرته على الظهور أينما حللت فى المدينة، بحيث لن تعرف هل هو بناء واحدٌ أم متعددٌ؟ فإذا ما سعدت بدخوله لن تعرف أهو مكان دخلته أم وهم دخلك!!

مولاتي تقول إن روحها
لم تُخلق لهذا الجسد، وجسدها
لم يُخلق لهذه المدينة

من أية نقطة في المدينة ستلوح لك "المحلمة".
قصر وردى بقباب صغيرة كأثداء العذارى، ولسوف تشم رائحة احتراق البخور التي تتصاعد منه لتصنع سحابة من الدخان لها دفء ونعومة النشوة.
ولن تجد من يتطوع ليحكي لك قصة القصر التي يمتصها الأطفال من أثداء الأمهات، ولكنك ستقرأها مرارًا فى منشورات سرية تجدها مدسوسة في كوات المراحيض العامة، وعلى مقاعد الحدائق، وبجوار الثلاجات الأوتوماتيكية للمشروبات وشبابيك الصرف الآلى، وستقرأ العديد من الشروح والحواشي مع توقيعات غامضة لجماعات مجهولة، لكن نص القصة ستجده فى كل مرة بالكلمات ذاتها، نفس الترتيب، نفس الحروف وطريقة الطباعة. كما لو كانت نصا مقدسًا تنزَّل مدونًا لا ملفوظًا.
تقول القصة: كان أمير المدينة فى قيلولته، غافيًا على أريكته عندما اقتحمت ابنته الوحيدة هدأته. أغمض العبيد عيونهم حتى لا يبطش بهم الأمير وقد رأوا درة تاجه فى ثياب لا تستر. كانت الأميرة الشابة تنتفض وتصرخ بلغة غير مفهومة وتحتضن الهواء.
قام الأمير مذعورًا، حبسها فى جناحها وأمر مناديه فجمعوا له الأطباء، والسحرة والعرافين، وأدخلهم إليها واحدًا واحدًا، وكلما خرج أحدهم مطأطأ الرأس أمر السيَّافَ بقطع رقبته، حتى جرى الدم جداول فى أبهاء القصر وحدائقه الفسيحة. وعندما دخل الأخير غاب طويلاً وخرج مبتسمًا.
نظر إليه الأمير بين مستبشر ومرتاب، ودخل إلى ابنته فوجدها غافية وعلى شفتيها ما يشبه الابتسام؛ فخرج إلى العراف وسأله فى حياد بعيد عن التوسل والتفزيع: ماذا صنعت بابنتى؟!
قال: سيدى الأمير! مولاتى تقول إن روحها لم تُخلق لهذا الجسد، وجسدُها لم يُخلق لهذه المدينة. ثم خفَّض العرافُ من صوته وطلب الأمان فأمَّنه بحركة متوترة من رأسه.
همس العراف: تقول يا مولاى إن المدينة منذورة للذة لا بأمر ربة مقدسة، وإنما بفعل شيطان اغتال إلهة العاطفة، وتتحدث يا مولاى عن شيء اسمه "العشق" يرفع الإنسان إلى الأعالي. تصفه مولاتى بتبجيل غريب يرفعه فوق النظر والتقبيل والضم والمفاخذة والإيلاج.
سأل الأمير مستنكرا: وماذا أكثر من هذا؟!
قال العراف: تقول يا مولاي إنه شعور يولد فى اثنين فيصيران واحدًا. وتصبح كل جارحة فى كليهما نصفًا لا يكتمل إلا بنصفه الآخر، وعند ذلك تغدو العين ناظرة. واللسان متكلمًا، والأيدى ملامسة، ثم همس: ولا ينزو يا مولاى سلاحٌ إلا فى هلاله.
أطرق الأمير طويلا، وسأله: وماذا أيضا؟
قال العرافُ: حدثتنى يا مولاى عن مدن بعيدة تمشى فيها النساء حاسرات الثياب كاشفات الرؤوس، يخاصرهن رجال حليقو الوجوه ناعمو الثياب، يعاملونهن بنبل لا تعرفه مدينة النزو الفظ، ويولد لهم أطفال من أهِلّة الأمهات المحبة وليس من أهلة الإماء الضجرة.

ثم باس العرافُ الأرضَ بين يدى مولاه، وقال: مولاتى ياسيدى الأمير، تعشق رجلاً من أولئك، وتُصرَّ على الرحيل لتعيش معه هناك.
قال الأمير: ولكنك لم تقل، حتى الآن، ماذا صنعتْ؟
قال العراف: أحضرتُه لها يامولاى، فاستقبلته ونامت مطمئنة.
قال الأمير منزعجا: كيف وما نوع هذا الاستقبال؟!
قال العرافُ الذى يعرف لغاتِ الأمم ومخاوفَ الأمراء: مولاى! هو مجرد وهم مريح، لكنها للأسف ستفيق وتعود الى ثورتها.
أطرق الأمير ساعة والعرافُ راكعٌ أمامه، ثم عاد يسأله: والعمل؟
قال العراف: يضع مولاي بين يديّ مائة مكيال من الذهب ومائة من الفضة. أُشيّد لمولاتى هنا المدن التى تحلم بها وأزرع لها الغابات، وأبث فيها العشاق أزواجًا. وبينهم حبيب مولاتى، ولا تسألنى كيف، وحسابى فى النهاية: أما أن يُبقيني مولاي عبدًا من عبيده وإما السيف.
وافق الأمير بهزة من رأسه المطرق.
وشرع العراف فى الإشراف على بناء القصر الذي أخفى تحت أحجاره طلسما لا يعرف غيره مكانه. وزين الجدران برسوم لمدينة تعج شوارعها الفسيحة بالعشاق المتخاصرين، يتبادلون القبلات على الأرصفة وفي المقاهي وعلى أبواب دور السينما وفي المقاهي وعربات الترام التي تحملهم الى غابات من الأشجار العالية والعشب.
عندما اكتمل القصر دعا الأميرة لافتتاحه، وأشعل البخور الذى جلبه بكميات وفيرة من الهند.
سارت الأميرة بين الجدران فانبعثت الرسوم ونزلت الى البهو الكبير، عاشت الأميرة بينهم، تمارس حياتها كما فى المدن البعيدة، تنطلق وسط دخان البخور الكثيف فتحس بالقادم يمتص شفتها، ويخاصرها ليعبرا الشارع المزدحم ويختفيان بين الأشجار.
ومن يومها عاد الأمير إلى جلسته المريحة، يمروح عليه عبيده بمراوحهم الذهبية، وأحفاده حوله يتقافزون ويلهون، وهو يُقبّلهم فرِحًا.
وعاش القصرُ الوردى ذو القباب الصغيرة حلمَ كلِ أنثى بلذة مكتملة، حقيقية وحنون.

يقول بعضهم إنها
خافت ضياع تعاليمها،
فأقامت هذا اللسان برهانًا على وجودها الباهر.

وقد يتطلب الأمر محض أيام، وقد يمضى عمرُك كله قبل أن تعرف سر اللسان الذي يرفرف على علم المدينة، ويلصقه سائقو السيارات على زجاجها، وتجده مطبوعا على حقائب الأطفال، ومرسوما على الجدران أو منتصبًا في المداخل، وتُمهر به القوانين والقرارات الرسمية.

وستأتي صدفة، تضعك في مواجهة حشد ضخم فى ساحة فسيحة، فإذا ما تأملت ستراهم وقد انقسموا إلى مجموعات متلاصقة تفصل بينها خطوط وهمية، بعضهم يحركون شفاههم بما يشبه الأدعية والتراتيل، وبعضهم يكتفون برفع أكف الضراعة، وبعضهم كشفوا عن أعضاء متدلية تهتز كقطع اللبان الممضوغة، بينما يؤدون بأيديهم حركات فاحشة، وبعضهم يبصبص بعيون مرتخية الجفون، وبعضهم تهتز أجسادهم بفعل الضحك الذى تنبىء عنه أفواههم المفتوحة عن آخرها، وبعضهم تتحرك رؤوسهم إلى الأمام وتتراجع إلى الوراء بلسان مشرع كسيف. إلى جانب كل هؤلاء سترى مجموعات من حملة الأقلام والدفاتر لا يكفون عن التدوين، بينما تقف مجموعة أخرى بأجهزة التسجيل الحديثة ومعدات البث الاذاعى، وكاميرات التليفزيون.

وقد تمضي لتقضى معذبًا بحيرتك من هذا الصمت الصاخب، وقد تحملك عيناك إلى حيث ترى فى العمق، مخاضة ضخمة تنمو على سطحها الطحالب، ولن تستطيع أن تمنع نفسك من الدهشة عندما تلمح فى وسطها مسلة تتلوى، وستسأل نفسك بانبهار: كيف وصل الفراعنة الى هنا؟! وكيف أقاموا هذه المسلة العجيبة التى يطوحها الهواء؟!

وستصير دهشتك فزعًا عندما تكتشف أنها لسان، وأن هذا التلوي ليس الا حركته الدائبة فى اللعق والكلام، مما يصنع هذه المخاضة التى يبدو ماؤها مشوشًا لعابر مثلك، أما سكان المدينة فالأمر بالنسبة إليهم مختلف. بوسعهم تمييز موجات النزو من موجات الكلام في ماء البحيرة، كما أن بوسعهم فرز موجات الكلام وتمييز أخلاط النصوص المقدسة من النكات الجنسية، من القرارات الادارية، من الاكتشافات العلمية، والروايات والأشعار، والدعوات، والصراخ الفاحش، ووصفات الطب الشعبى، وبوسع كلٍ من سكان المدينة ألا يسمع إلا ما يحب.

ولن تجد مشكلة فى أن تضع نفسك بين إحدى هذه الجماعات، أما أن تسأل متى ظهر اللسان وكيف تكونت المخاضة، فتلك مشكلة كبرى، حيث تتعدد الروايات ويدافع كل طرف عن روايته باعتبارها الوحيدة الصحيحة.

بعضهم يقول إن الإلهة لبثت تتأمل مخلوقاتها التى تتسافد بعنف صامت كالأفاعي، حتى أصابها الضجر، فلما نزلت تداريه ازدادت ضجرًا أفصحت عنه في هذا المكان من المدينة؛ فأقامت اللسان لتعلمهم لذة الصوت، صفيرا وإعرابا بدلاً من التسافد الصامت.

يقول بعضهم إنها خافت ضياع تعاليمها، فأقامت هذا اللسان برهانًا على وجودها الباهر، ويقولون إن ماء البحيرة كتابٌ مفتوحٌ لقصة خلق المدينة وتعاليم العيش فيها، وإنه يحوي أكثر التعاليم عدلاً، إلا أن سكان المدينة استراحوا الى صمتهم وتركوه يفيض ليصنع هذه المخاضة التى تعلن عن

المعجزة ويعلن وجودها ـ فى الوقت نفسه ـ عن عصيانهم ، ويقولون إن هدوء المخاضة له نهاية، إذ سيتحول ذات لحظة الى طوفان يغرق المدينة.
ويؤكد بعض المعمرين أنهم رأوا بأنفسهم آمر الجن عندما قطع لسان الهدهد، وأقامه فى هذا المكان يردد اعتذاره ليكون عبرة لكل من يحاول أن يعد بمالا يقدر، ويقولون إن هذا هو السر الذى يجعل اللذة فى هذه المدينة مجرد رغبة موحشة ومبهمة.
وتتوارث الأجيال حكاية شعبية عن مولود عجيب لأرملة مشهود لها بالاستقامة جاءها المخاض فيه بعد وفاة زوجها بسبع سنين واستمر مخاضها العسر سبعة أيام حتى انفطر لها قلب الإلهة فنزلت فى عربتها، وأمسكت بهلال المرأة وأمرت الطفل بالنزول فنزل، وعندما قالت سلامًا رد المولود عليها السلام؛ فقالت: هو لساني، وليبقى هنا لسانا للذة.
ويقول البعض إن الإلهة لما تجلت ورأى البعضُ لسانها فصاروا ألسنا استخدموا ما يتميز به اللسان من فصاحة، فطلبوا منها نصبًا يكون لهم مجدًا ويرفعهم فوق الآخرين درجة، بينما تلح الصحافة المحلية على أن اللسان هو الدليل الحى على الانسجام بين الإلهة والأمير، إذ يحدد اللسان بدقة مسئوليات كل فرد بالمدينة تجاه الإلهة والأمير.
ويهمس بعض الشباب الذين تسللت الى رؤوسهم الأفكار الغريبة، مؤكدين أن اللسان ليس إلا "ظلًا" من أولئك الغرباء الذين اجتذبهم نداء المدينة الغامض، وقد تقلصت أعضاء اللذة لديه من كثرة ما صادف من احباط، ولم يبق منه سوى لسان لا يكف عن الهذيان بالأحلام التى لم تتحقق.
وأصدر بعض هؤلاء الشباب كتبا ـ توزع سرًا ـ تناولوا فيها تاريخ "الظل" وحياته قبل أن يتحول إلى لسان، وأصدر بعضهم منشورات سرية تضمنت حوارات مع الظل فى أواخر أيامه قبل التحول، وقد حوت شتائم مقذعة للمدينة وسادتها ونسائها، كما تضمنت نداءات غامضة لمجهولين في مدينته البعيدة، ولهيئات دولية. بعض المنشورات حوت صورًا لأوراق روزنامة حائط دون عليها الظل يومًا بيوم وقائع حياته السابقة بالإضافة إلى وصية بالتصرف فى ثروته التي جمعها والتي لم يقف أحد على أثر لها بعد ذلك.
ويقول أعضاء من جمعيات حقوق الإنسان ومكافحة التمييز ضد المرأة التى انتشرت مؤخرًا فى المدينة إن النساء عانين طويلا من عنف الرجال الذين لا يتذوقون فتضرعن إلى إلهة اللذة فأقامت هذا النصب للسان اللعاق ـ الذى ـ لأمر غير معلوم ـ فشل حتى الآن فى اقناع الرجال بأكثر اللذات حنانا.
وينفى أعضاء جمعيات مكافحة التمييز ضد الرجل أن يكون للإلهة دخل باللسان الذي أقامه رجال المدينة عن طيب خاطر لتوفير لذة اضافية لنسائهم المحبوبات، لا يستفيد الرجال شيئًا منها، لكن النساء انصرفن عن الرجال تمامًا بعد إقامة النصب الذى يميزن فى حركته الرتيبة أكثر من سبعمائة وضع لبلوغ الذروة باللعق، ولهذا يتجمعن حوله مثانى فى مقاصير سرية.

ولما قلّب الجارية ولم يجد
لديها من سبيل سوى ذلك المألوف
أحس أن السيدة خدعته.

ستشعر بلزوجة الهواء، وتشم رائحة ماء الحياة التى تقدسها العاشقات وتكرهها المحترفات، فتعرف أنك صرت قريبًا من "الملذة".

قصر فخم من ثلاثة طوابق، أسواره العالية بلا أبواب، وله مدخنة على شكل عرف ديك يتدفق منه دخان الرغبة مع رذاذ ماء الحياة المختلط بالدم.

ولن تكون مجبرًا على تصديق كل مايقولونه عن قصر بلا نوافذ، لم يغادره سكانه أبدًا، ولكنك ستجد قصة انشائه مدونة بالصور على جدران أسواره.

تقول الحكاية إن سيدة القصر، لما خافت وحشة الأيام، جلبت لرجلها عذراء من بلاد خصيبة، حضرت فى هودج من الحرير المقصَّب على جمل مزين بأجراس من الذهب، فى موكب ضخم، يتقدمها حملة الشموع ويحف بها الفرسان، ويتبعها حملة المباخر من الخصيان. وأقيمت الأفراح فى القصر سبعين ليلة، السيدة على عرشها مع رجلها والجارية بين أيدي الجواري والخصيان والكهنة بين تحميم وتعطير وتلقين لتعاليم الإلهة والسيدة.

وعندما اجتاحت الرغبة السيدة قامت ورجلها في يدها، يزفهما نفير اللذة والطبل المؤجج، إلى جناح اللذة، حيث استلقت في سريرها بشكل رمزى، قبل أن تتركه للرجل مع المرأة التي اشترتها بمالها. وعندما همت بالانصراف أفزعها جمال الجارية الصغيرة فاستدعت حكيمها ليختصر أعضاء اللذة لدى الفتاة. أزال ثدييها وخاط الإست. وحفَّ الشفتين وفتح طريق الولد.

وانسحبت السيدة إلى الجناح الذي كانت قد أمرت ببنائه لنفسها وللطفل والمرضعات. وأخذت تحيك بنفسها الجوارب للصغير وتطرز له ثياب الحرير بخيوط من ذهب، وترتب الدمى التى جلبها التجار من مدن المشرق والمغرب، وتشرف بنفسها على تغذية المرضعات.

والسيد الذى صار منذ تلك اللحظة مطالبا بطفل يدفىء مخدع السيدة لم يكن يشاطرها ولعها بالأطفال، ولم يكن يرى فيهم سوى عرض جانبى للهدف الأسمى: اللذة.

ولما قلب الجارية، لم يجد لديها من سبيل سوى ذلك المألوف؛ فأحس أن السيدة خدعته، ولم يستطع فى الوقت نفسه أن يكره الجارية المسكينة. في غفلة من السيدة المشغولة بجناحها، أمر العبيد فأخلوا الطابقين الأول والأخير، ثم أمرهم فجلبوا سبعة آلاف دجاجة رومية وسبعة آلاف ديك، وضعوا الدجاجات فى الطابق الأول والديوك فى الأخير، وثبتُّوا فى الجدران الأنابيب التى تنثر الحب المجروش المخلوط بالمنشطات.

فى الليل تسطع الأنوار فى الطابقين، ويتم الدفع بديك إلى الدجاجات الشبقة، وبدجاجة إلى الديوك الهائجة، فتتأجج المعركة فى الأسفل والأعلى، وفى المنتصف الرجل المنكفىء على بطنه يستمتع عبر السقف الشفاف بلذة الدجاجات وتشظي الديك، والجارية الى جواره مستلقية على ظهرها تتأمل هياج الديوك الذي يبتلع الدجاجة، ثم تنطلق صرختهما في اللحظة ذاتها: عنيفة مخنوقة بالأسى.

ستستمع إلى كل هذه الحكايات،
وسوف تضطر لتصديقها جميعاً،
لأن أحداً لم يرجع من المتاهة
ليحكي بالضبط ما حدث.

تأمل العراف، الذى صار مقربًا، كف مولاه وردها فزعا.
سأله الأمير عما رأى. بكى العراف وباس الأرض بين يدي مولاه.
قال الأمير: لا تخف، أنت لا تكتب المسطور، بل تقرأه.
أجاب العراف بصوت متهدج: ما أراه، يامولاى، فظيع، وبكائى فَرَقُ عليك وليس خوفا منك.
قال الأمير: فماذا رأيت؟
قال العراف: خطر يا مولاى لن يُبطله سحر السحرة.
قال الأمير نافد الصبر: لا طاقة بي اليوم للأحاجى.. تكلم وإلا أمرت بجز رقبتك.
قال العراف مجهشًا: سيولد يا مولاى العشق فى قلبين لرجل وامرأة من رعاياك. وعلى أيديهما يزول عرشك ويقوم عرش الحب.
صار غضب الأمير خوفًا، فأوقف مراوح العبيد بدفعة متوترة من يديه، وأخذ يقطع البهو رائحا غاديا، يدق راحة يده اليسرى بقبضة يمناه، والعراف قائم مطأطيء الرأس. ثم عاد الأمير إلى جلسته، وسأل عرافه بوجل جاهد لإخفائه: وكيف نكتشف هذا العشق؟
قال العراف: عبدك يامولاى لا تخفى عليه بذرة حب ولو فى عين ذئبة.
وقال الأمير: إذن، تدرب فرقة من عيوننا تراقب هذا الأمر، والسيف والنطع جاهزان لكل من يثبت تورطه فى المؤامرة.
على هذا النحو ستصلك الواقعة دائما. كما لو كان كل سكان المدينة من شهودها. وعند هذا الحد ينتهى الاتفاق الصارم ويبدأ التشعب الذى يصل إلى حد البلبلة فى روايات الرواة لقصة "المتاهة" التى تقف بشموخ ورهبة عند حدود المدينة.
البعض يقول إن الأمير تراجع من تلقاء نفسه عن قرار القتل وأمر ببناء المتاهة لاجتناب خطر العشاق دون تلويث ثوب ملكه بدمائهم. والبعض بدافع من التحيز للعراف يقول إنه هو الذى أشار على الأمير ببنائها، بينما يؤكد البعض أنه تواطأ مع الأميرة الشابة التي لا تحب من الدماء إلا دم الحيض ودم الغشاء.
وتؤكد رواية رابعة أن وزير المدينة كان عاشقًا، وعندما كلفه الأمير بتنفيذ الإعدام فى أول عاشقين حملهما بعيدًا وتركهما مع قربة ماء وكمية كبيرة من اللحم المقدد والفاكهة المجففة، وأخذ فى كل مرة يفعل هذا حتى صار عدد العشاق أكبر من أن يخفى على عيون الأمير ففكر فى بناء المتاهة صونًا لرقبته وحمايةً للعشاق.
وهناك رواية خامسة تعترف بقصة الأمير فى بدايتها، ولكنها تؤكد أن المتاهة عمل من إبداع خيال العشاق المبعدين أنفسهم، وهناك من ينكرون كل هذه الروايات ويؤكدون أن عمر "المتاهة" من عمر المدينة ذاتها، وأن آمر الجن فكر فى بنائها كحيلة أخيرة فى مواجهة الملكة العنيدة. وقد تسمع

من يهمس سرًا بحكاية تحاول المدينة نسيانها بإصرار لا يساويه إلا إصرار الحكاية ذاتها على البقاء.
يرسمون لك ببالغ الحسرة صورة مدينة حنون، تمنح سكانها لذة مترفعة عن الدناءة، تتسم بتناسق ونبالة قصوى وإشباع لا تنقصه السكينة. عندما كانت المدينة في كنف إلهتي العاطفة واللذة معا، الى أن جاء اليوم الذى نظرت فيه إلهة اللذة إلى وجهها فى مرآه الرمل، فرأت كم هو حوشي وداعر، وتطلعت إلى وجه إلهة العاطفة الهادئ بحسد فرأته يزداد جمالاً كلما تزايد حسدها. وهكذا دبَّرت لها حادث مرور أثناء جولتها بالمدينة (وكانتا تتبادلان النزول اليها) وقد نجت الإلهة الخجول من الحادث، لكنها خافت مؤامرة جديدة، فأمرت بإنشاء المتاهة، تحميها من حسد إلهة اللذة وتتطلع فيها بحزن إلى يوم تعود فيه إلى مدينتها المحبوبة التى تحولت فيها فضائل المحبة الى عبودية خبيثة للذة حارقة تثيرها الإلهة الشبقة دون رحمة.
على أن تصميم المتاهة من الداخل، ليس أقل اثارة للحيرة من قصص انشائها. وكذلك مصير العشاق الذين تبتلعهم الى اليوم، ولهذا تجد سكان المدينة اذا اجتمعوا، أو اذا اختلى أحدهم بنفسه يتفرغون لمحاولة تصور ما يمكن أن تكون عليه المتاهة.
البعض يقول إنها مجرد مجموعة متشابكة من الممرات تضم عددًا لا نهائيًا من الأبواب الوهمية، يظل العاشق يدور بينها بحثًا عن معشوقه ليجد نفسه فى كل مرة فى النقطة ذاتها حتى يجف كشجرة من الجوع والعطش.
وستجد من يصف لك النعيم الذي يلقاه عشاق المتاهة في عدد من الغرف لا يُحصى. يعدد لك نفائس ما تحويه من تحف وحشيات وأسرة، وقد خُصِصت كل منها لعمل من أعمال اللذة، فتجد غرفًا للنظرة، وغرفًا للابتسامة، وغرفًا للمسة، وغرفًا للخمشة، وغرفًا للتقبيل، وغرفًا للضم.
ويستنكر البعض هذه الرؤية التى تقف بالمتاهة عند صورة المدينة ذاتها، ويؤكد هؤلاء أن الرجال والنساء فى المتاهة يجتمعون أزواجًا فى ممارسات حنون لا يبقى معها عطش أو جوع، حيث تسبح الأرواح فى ملكوت العشق نظيفة، خفيفة، بلا نزو زلق أو رائحة عرق كما فى المدينة.
وستجد من يسخر من هذه الصورة مؤكدًا أن ممارسة اللذة فى المتاهة تحظى بحرية لا تحظى بها فى المدينة، دون ملل من نساء، الدميمة فيهن تفوق فى جمالها أجمل امرأة فى المدينة بسبعين ألف مرة وأكثر. يتزايد جمال الواحدة منهن بإدامة النظر اليها، فتتخلق فيها فى كل لحظة الصورة التي يشتهيها الناظر الغارق فى جمالها، بينما تتوالى فى قلبه الصور كما تتزاحم آمال النجاة فى قلب المشرف على الغرق.
يتأسف البعض على مصائر المبعدين فى مكان لا ينالون فيه الا ظمأ التيه، بينما يؤكد آخرون أن المتاهة، بعكس عزلتها البادية، تضم أنفاقًا وسراديب سرية تتدفق منها العربات التى تحمل الفاكهة والطعام من كل لون، حيث يؤكد البعض أنها تتصل بالمحلمة، ويقطع آخرون بأنها ترتبط بمدينة العشق التى لجأ اليها الوزير بعد أن افتضح أمره.
وسيقسم لك المعمرون أنهم رأوا المتاهة عندما لم تكن على هذا القرب من المدينة، ويقول بعضهم إن المدينة توسعت حتى اقتربت منها، ويتمسك آخرون بأن حدود المدينة هي نفس الحدود التى كانت فى صباه، مؤكدًا أن المتاهة هي التي تقترب، وستواصل الاقتراب والضغط على المدينة حتى لا يبقى فى النهاية إلا هي والمحلمة.

ستستمع الى كل هذه الحكايات، وسوف تضطر لتصديقها جميعا، لأن أحدا لم يرجع من المتاهة ليحكى بالضبط ماحدث.

المدينة الصدى

على صفحة الرمل، تنعكس صورة المدينة مفعمة بالحقيقة مع بعض التحوير بفعل انكسار الضوء؛ فترى - لو نظرت- الشوارع الفسيحة نفسها، الأشجار المهذبة فى نظامها الصارم، البشر أنفسهم، مع بعض التحريف فى الملامح، بحيث لن ترى سادة أو عبيداً، وإنما نوع ثالث لا يكف عن الركض والثرثرة، حالماً بثروة السادة ولذة العبيد.
فى تلك المدينة الصدى، ما من وسيلة ناجعة لقياس الوقت، فهذه إمكانية يفتقدها حتى بائع الساعات السويسرية، الليل والنهار يتعاقبان بشكل مشوش. لكل من سكانها ليله ونهاره الخاص، بعضهم تظل شمسه معلقة فوق رأسه، وبعضهم يستطيل ليله بلا حدود.
يسير الرجل الظل فى ليله أو نهاره - بجوار الأسوار العالية، يتأمل النوافذ المغلقة، يرهف لكل اهتزازة للستائر الكثيفة، تتأهب عيناه لعناق العين التي تتلصص، ترتخي كتفه استسلاماً لليد التي ستمتد من بوابة السور ذاتية الحركة، تشده وراءها إلى غرفة تفضي الى غرفة حتى الغرفة الأخيرة، حيث المرأة التى بخرت أعضاءها عارية تتأود فى غلالة سيكون على يده أن تمتد لتمزقها.
وعندما لا تمتد يد، يعمد الى مفارقة الطرق المألوفة، سالكًا تلك الموغلة في الوحشة، عساه يصادف العربة المتوقفة التي يعرف قصتها كل سكان المدينة الصدى. يتوارث الظلال القصة، وكل منهم سيخبرك بأنه كان صديقًا لظل جرت له القصة ولم يعد يراه. ستُخفِّض المرأة من الزجاج الداكن لنافذتها وتطلب مساعدته لتشغيل العربة المتعطلة، ولسوف يستجيب متظاهرًا بانطلاء الحيلة، مستسلماً لشبق الأميرة وحرسها من النساء، يجبرنه على الركوب تحت تهديد السلاح، ويأخذنه إلى قصرها في السفح تحت قدمى إلهة اللذة.
سيفعل ما تأمره به، دون أن يقع فى فخ العجز الذى تنصبه للرجال حارسات حاقدات على أميرتهن، شبقات للدم؛ فلن ينظر إلى البنادق المشرعة حول السرير الذي سيضمه عاريًا مع الأميرة، وسيعرف كيف يرضى امرأة بسبعين هلالاً.
يشحذ الظل بصره، وما من أحد يشرع فى وجهه بندقية أو سؤالاً، فيمضي فى طريقه، يطارد أسراب النساء اللامرئية، ينصت إلى الصرخة الأنثوية تخلخل هواء المدينة الصامتة، ويردد الهواء صداها فلا يستطيع أن يميز فيه لذة المرأة من ألمه.

فما كانت المدينة الصدى
الساهرة على راحتهم لتوجد
لولا ذلك الغضب المقدس

لا يحظي تاريخ المدينة الصدي بمثل ما يحظى به تاريخ المدينة الحقيقية من اهتمام، بل إن تاريخها يكاد يكون مجهولاً تماماً، إذ أن سكانها لا ينبتون من أرضها، ولا تلدهم إماء مخلصات لسادتهن، ولكنهم غرباء يجذبهم سحر المدينة الأصلية يدخلونها من الأبواب التي ناوشت أحلامهم في بلادهم البعيدة، ولكنهم يجدون أنفسهم ينزلقون عبر سراديب خادعة الى هذه المدينة الصدى، ولا يلبثون أن ينسوا من هم، ومن أين جاءوا، ولماذا؟ إلى أن يأتي اليوم الذي تلفظهم فيه المدينة، لتستبدلهم بآخرين.

والقليل المتاح عن المدينة الصدى، يرد عرضاً، وبإشارات غامضة في بعض الحكايات المتعلقة بتاريخ المدينة الحقيقية، والتي أصبح رواة سيرة المدينة ومنشدوها يتحاشونها.

لا تسمي إحدي الحكايات المدينة الصدي بالإسم، ولكنها تشير إلى المدينة "الضرطة" التي تشكلت من ضراط الجن عندما دفعهم آمرهم المتعجل إلى حمل أحجار أثقل من طاقتهم، وتجد هذه الرواية مصداقية عند البعض بسبب الرائحة النتنة المدوخة للمدينة، ويسخر آخرون من الرواية على اعتبار أن الجن ما كانوا ليملكوا من الوقاحة الحد الذي يجعلهم يتركون ضراطهم قريبًا إلى هذا الحد من مدينة أعُدت لملكة، وما كان آمر الجن ليسمح بوجود هذه الرائحة بلا أي ضمان يمنع تسربها إلى الأنف الملكي الحسَّاس. لا تخلو هذه الحجة من وجاهة، خاصة أن ضرطة العفريت لها أوان محدد كل عام تهب فيه عاصفتها التي لا تسلم منها مدينة الحقيقة نفسها، ولهذا فقد تجد نفسك مضطرًا لتصديق من يؤكدون أن هذه الرائحة المقيمة ليست إلا نتيجة لاختلاط روائح العرق بأبخرة الطهي لمختلف أنواع الأطعمة في مدينة جعلتها إلهة اللذة مطبخاً لمدينتها التي لا ينبغي أن يكون لها سوى رائحة العطر المهيجة والرائحة المخدرة لماء اللذة.

وستجد من يهمس لك -إذا ما اطمأن إليك - بالواقعة العنيدة، التي لا يساوي إصرارها على البقاء إلا إصرار المدينة علي نسيانها، ذلك لأنها تذكِّر بغضب الإلهة المبجلة، ولكنها أيضا ذكرى سارة، فما كانت المدينة الصدى الساهرة علي راحتهم لتوجد لولا ذلك الغضب المقدس.

يقولون إن الإلهة نظرت فرأت اللذة تنسحب من أجساد المدينة، فقالت: ما لكم صرتم ظلالاً باهتة، وصدي مشوهًا ومسيئًا للذتي المقدسة؟ وصار سؤالها الغاضب حكمًا لم تشأ التراجع عنه، ولكنها إذ أشفقت عليهم عادت وتجلت فأشعلت اللذة فيهم مرة أخرى، وخففت عنهم؛ فلم يعد الواحد منهم مطالبًا بممارستها إلا بجارحة واحدة من جوارحه، ووعدتهم في الوقت ذاته باستمرار المدينة الصدي لتكون في خدمة مدينتهم، والتي سيتعين عليها من الآن فصاعدا اصطياد الغرباء لتعميرها.

حافظت الإلهة علي وعدها، تمد حبائل سحرها للغرباء من خلال شبكات المعلومات الدولية ومراسلي الصحف ووكالات الأنباء، ومصوري محطات التليفزيون الفضائية. ينقلون صورة الحياة المفعمة باللذة في مدينة الربة المقدسة، فيتدفق إليها ضحايا الخدعة الإلهية وتقودهم سراديبها المسحورة إلى المدينة الصدى التي تعجنهم في كتلة لينة من الخوف، يركضون كجن سليمان

دونما أدنى إشارة إلى جوهرهم البشري، ولا يمكن أن تميز بينهم سوى بعض الوجوه التي ذاعت شهرتها، وصارت مع الزمن عنوانا على إحكام فخ لا يخيب.

ستكون الجميلة التي أتزوجها أول أميرة
بلا إماء أو وصيفات تفاديًا لعلاقة
قد تنشأ بينها وبينهن في الفراش الناعم،
ولن أربي كلباً بلسان لعَّاق وإن توسلت

علي مسيرة يوم يشم القادمون رائحة العرق النفَّاذة، تلتف حول أنوفهم كلما أوغلوا كحبل مجدول من رائحة اليود والنشادر المركزين، ولسوف يغلب فضوُلُهم قرَفَهم فيمضون في طريقهم يسحبهم الحبل الذي يشتد، حتى لا يعود بمقدورهم التراجع.

ولن يكون لديهم فيما بعد ما يكفي من الوقت ليعبروا عن دهشتهم: كيف فقدوا كل إمكانية للمقاومة في مدار الرائحة، وكيف لا يستطيعون تعيين اللحظة التي دخلوا فيها إلى المدينة، وكيف ساروا في شوارعها الفسيحة دون إبداء أي امتعاض تجاه وحشتها التي واجهتهم كدرع غير مرئي، وكيف -حتي- لم يلحظوا قصورها الطافحة بالفخامة الدميمة؟

فقط، وبصعوبة بالغة، سيتذكر كل منهم لحظة سريان خدر الرائحة في دمائه كقدر عنيد وراسخ، وهي نفس اللحظة التي بدأت فيها حياته كظل يكد ويحلم في صمت متحاشيًا غضب "الظعبيّد".

ستسمع دائما من يهمس بهذا الاسم، وسيمضي وقت طويل قبل أن تجد من يتجاسر ليصفه لك: هو كائن غريب لا يثبت علي ملامح السادة أو العبيد أو الظلال، ولا أحد يمتلك مشاعر محددة تجاهه، ولا أحد يعرف أكثر من أنه القربان الذي تختاره المدينة من بين القادمين إليها على رأس كل سبعة أيام أو سبعة أشهر، أو سبع سنين، أو سبعين أو سبعة آلاف أو سبعين ألف سنة ليجدد السلام بين عناصرها الثلاثة؛ السادة والعبيد والظلال.

هو في الصباح سيد حقيقي، يمشي كمارد في طيلسانه محروساً بموكب الرائحة الذي يحف به مثيراً الرهبة في قلوب الظلال، لا ينقص من هيبته تشعث شعر لحيته ورأسه، أو رثاثة ثيابه. صولجان الرائحة في إحدى يديه، وفي الأخرى سوطها يسوط به الظلال في سعيها إلى الثروة وحلمها باللذة، فتنتظم الأعمال وتستقيم الأخلاق طوال النهار حتى يتفجر تعب الظلال دماً وتبدأ في الانسحاب إلى مناماتها.

وفي التوقيت ذاته يكون "الظعبيد" قد بدأ في التقاصر. ومع اكتمال الغروب تقترب لحيته من الأرض، ويتحول فرق الطول إلى حدبة كبيرة، والصولجان إلى عصا خشنة يتوكأ عليها العبد المتخلق من هيئة السيد، ويتحول السوط إلى ثعبان يداعبه كحاو محترف في سعيه على أبواب الظلال بطيلسان تناوشته الرقع.

عندما يتوسط القمر السماء يعود إلى كهفه الذي تنمو بين أحجاره الطحالب، يرفع حشية القش التي يستلقي عليها، يخرج ثروته المحروسة بهيبة الرائحة، ليفك الكيس ويُفرغه في حجره ويشرع في العد، ثم يفرغ جيوبه ويعود ليعد من جديد، وعندما ينتهي، يتأملها بزهو ثم يعيدها إلى الكيس، ويربطه، ويودعه مكمنه، ثم يسوي فرشته ويتناول شيئا مما جادت به الظلال وليستلقي على ظهره مغمض العينين.

وتأخذ حدبته في الاستواء شيئاً فشيئاً، وفي الوقت الذي يكتمل استواؤه تبدأ حياته كظل، يحلم كغيره من الظلال، يري نفسه في مدينته البعيدة، سيداً، يركب السيارة الفخمة، ويسكن القصر الفسيح

الذي تحف به الأشجار، وينبت فيه العبيد الجاهزون لتلبية أحلامه، والإماء الخبيرات بفنون اللذة. يستعرض في ذاكرته قصور المدينة ليختار من بينها النموذج الذي يحقق أكبر قدر من الدهشة، محاولاً ما أمكن تحاشي الإحباط الذي يصيبه كلما ناوشته صورة "المحلمة" القصر العصي على التكرار.

فجأة يرتبك الحلم أمام سؤال لم يجد له جوابًا: هل العلاقة الآثمة بين سيدة القصر وعبيده قدر لا يمكن تلافيه؟ وهو سؤال معذب يحمله إلى تفكير لا ينتهي حول كنه المرأة الجديرة بأن تشاركه الحياة في ذلك القصر، وعندما يصيبه الإرهاق يحسم أمره: لتكن من تكون. ولن ألجأ إلى العبيد، سأستعيض عنهم بالآلات الحديثة، وستكون الجميلة التي أتزوجها أول أميرة بلا إماء أو وصيفات تفاديًا لعلاقة قد تنشأ بينها وبينهن في الفراش الناعم، ولن أربي كلباً بلسان لعَّاق وإن توسلت. سوف لا يكون في القصر إلا هي وأنا.

وعند هذه اللحظة تحديدًا يرى أمه التي تركها وحيدة منذ ما لا يتذكر، تسري عبر الفضاء الرحب، وتجتاز فتحة الكوخ، في عينيها عتاب لا يُحتمل، يجهش فيشعر بيدها تحت ملابسه، تدلك ظهره، لا ينقلب على بطنه ويغفو مثلمًا اعتاد أن يفعل وإنما يقعد حزينًا خزيان.

يسند ظهره إلى الجدار، تتساقط دموعه، ثم يقوم، يوقد شمعة ويتناول ورقة وقلمًا من تحت حشيته، ويشرع في كتابة رسالة سوف يقرؤها لأمه صبيٌ من أبناء الجيران.

يدون أشواقه، يسألها عن أحوالها، ويعتذر عن التأخير لضيق وقته وجسامة مسئولياته، ولسبب آخر كان لا يحب أن يطلعها عليه: ضيق ذات يده وحيائه أن يبعث لها برسالة لا تحمل معها ما يعين علي مواجهة الحياة، ولكن الأمور صارت إلى الأفضل، وها هو يكتب ولن يعود إلى هذا التأخير مرة أخري، ويختتم بالسلام والقُبلات، ويطوي الورقة داخل المظروف، ثم يمد يده، يخرج كيس المال، يفك العقدة ويسحب ورقة يضعها داخل الرسالة المطوية، ثم يُفرغ الكيس ويبدأ في عد ما تبقى.

يعيد المال إلى الكيس، يطرق طويلاً مركزًا بصره علي المظروف، ثم بيد مرتعشة يستل ورقة النقد المستريحة داخل الرسالة يعيدها إلى الكيس مرة أخرى، يُحكِم عقدته ويعيده إلى مكانه، ثم يفتح الرسالة، يقرؤها بصوت عال، يتوقف أمام ضيق ذات إلبد، يشطب عبارة "ولكن الأمور صارت إلى الأفضل" ويكتب فوقها بخط صغير: "ولكن الأمور ستصير قريبا إلى الأفضل، ويومها سوف أرسل ما أقدر عليه". ثم يطوي الرسالة مرة أخرى، ويودعها مظروفها، يبلل طرفه بطرف لسانه، يحاول إغلاقه بأصابعه المرتعشة، يتراجع في اللحظة الأخيرة: "لا يمكن أن أرسل مثل هذه الرسالة، بعد كل تلك المدة"، يحاول أن يعيد العبارة الأولي، لكن السطر يصير مطموساً غير مقروء، يمزقها ويعيد كتابتها، يطويها، ويضعها بداخل المظروف، ستنتظر هذه الرسالة أيامًا قليلة تأتي فيها أموال جديدة، لا يمكن أن أخدش هذا الرقم، فالهبوط أسهل من الصعود في كل شيء، وإذا اعتديت علي الموجود فإنه سيكر مثل بكرة خيط، حتمًا ستأتي أموال جديدة، ولكن كيف سأضع نقودي تحت رحمة سعاة البريد اللصوص، وجيران تنقصهم الأمانة سيتولون فض الرسالة، كل هذا سعيًا وراء وهم مساعدة عجوز لا أدري إن كانت لم تزل على قيد الحياة أم لا؟!

وقد تسمع اصطفاق
بوابات اللذة
خلف تهدج صوته
خفيفًا كظل، عاجزًا كصنم، يتأمل نُسخه المتتابعة على قصدير الأرضية وكريستال الواجهات. شعره الخفيف الأبيض يتسلق من الجانبين ليستر قبة الرأس مقيدًا بليلاً بالفازلين، الشفه متهدلة بفعل تساقط الأسنان مسلولة كشفة حمار مقدم على النهيق، الأذنان مرفوعتان إلى الأمام، وستري لأول مرة في حياتك عينًا تأكل بهذا النهم.
يمشي ببطء، يداه في جيبه تداعبان سلاحه. يتابع الأجساد المغلَّفة بإحكام التي ينبجس سحرها من أزواج العيون، يفقد اتزانه في مدار اللذة، يتبع سرب النساء إلى داخل المتجر، عيناه تمران زائغتين علي المعروضات النائمة في سلام.
يختار الزاوية التي تكشف لعينيه وأذنيه كامل المتجر، يسجل الطنين المستمر كمادة خام لأصوات نسائية يستطيع أن يُشكِّل منها فيما بعد أكثر التوسلات فُحشًا، بعد ذلك سيعود ليتوقف أمامهن واحدة واحدة، يلتقط الصور وبصمات الأصوات، يفتح لكل منهن ملفًا خاصًا في مخزن اللذة، ولن يكون ذلك متاحًا دائمًا دون إجراء بعض التعديلات، فشهقة خوف علي طفل اختفي فجأة ستتحول إلى شهقة إعراب، وصرخة ألم بسبب عثرة قدم ستتحول إلى صرخة لذة، وضحكة مع أم عجوز، سوف تخزن بعد حذف العجوز من المشهد لتصبح الضحكة له بعد تعديل طفيف يضيف الغنج إلى الضحك الصافي.
ولسوف يجرفه في النهاية المجال المغناطيسي الأشد، يمضي وراءها مسحورًا، تتمهل فيتمهل، يسرع كلما أسرعت، يتأمل ما يجذب انتباهها، يقف في مواجهتها أمام حامل الملابس الداخلية، يديره برقة، يتناول قميصًا، يُقلِّب النظر بينها وبين القميص.
يتشجع ويسألها: ابنتي في مثل طولك، هل يناسبها هذا القميص؟
تنظر بقليل من الانزعاج إلى رجل أهتم الفم أبيض الرأس فتومئ بالموافقة دون كثير اكتراث، وربما تلمح اصطفاق بوابات اللذة خلف تهدج صوته، أو ترى السلاحين المشرعين في عينيه فتشيح عنه مستنكرة جرأته، ولكنه لن يتركها، بل سيسجلها في الملف المخصص لهذا النوع من النساء الأكثر إثارة، اللاتي يتطلب حملهن علي الاستسلام مزيداً من العنف اللذيذ، وقد يلتبس عليها تهدج صوته وترى فيه حياء شيخ غريب فتقترب وتقبل حذرة على المساعدة، تشرح المزايا والعيوب، تسدل القميص علي جسدها، وهو سارح يحاول استيعابها بكل تدفقها.
ولو كنت من الذين يرون أبعد، ستراه وقد شرع في تجريدها، وتري الملابس التي يُلقي بها قطعة قطعة على أرض خياله حتى تصبح المرأة عارية تنتصب في رأسه كعود من السرو. وقد لا تري أبعد ولكنك ستسمع بوضوح تتابع أنفاسه ثم همومه المفاجئ.
وستتوقف هي منزعجة عن الكلام، وتمتد يده المرتعشة تسترد القميص، ويجر رجليه إلى الخزينة يدفع الثمن ويمضي به نشوان، يوقف أول سيارة أجرة، يلقي بنفسه إلى جوار السائق الذي يسأله عن وجهته فيجيب باقتضاب لا يخرجه عن ذهوله، حتى يصل إلى كهفه الذي يقطنه مع غيره من الظلال.

يفتح الباب بهدوء، يلقي نظرة متأففة وقورًا وهو يتخطى الظلال المتناثرة أمام التليفزيون في الصالة المظلمة، يُحكم إغلاق غرفته خلفه، يلقي بالكيس علي سريره، يخلع ملابسه بسرعة، وعلي أطراف أصابعه يعود إلى الباب، يختلس النظر إلهم من الفرجة الضيقة، يطمئن ويخرج القميص من كيسه، ينشره علي السرير، يتمدد بجواره ويشعل سيجارة.
يجذب نفسًا عميقًا يطمئن معه على العدد: سبع نساء لسبع ليال، يرتبهن. الأكثر إثارة تفرض نفسها لهذه الليلة، مع نفس ثان عميق من السيجارة تهل المرأة من عمق عينيها، ويبدأ جسمها في التجسد شيئاً فشيئاً مثل صورة في مرآة تتضع مع تطاير الضباب عن السطح المصقول. عندما تكتمل يبدأ في تجريدها من ملابسها، يعطي الصدر الحجم والاستدارة التي يريد، ويحدد انسياب البطن وارتفاع الإلبتين، وطول الفخذين وشكل العشب وحجم الهلال.
ينظر مرة إليها ومرة إلى القميص، ويقرر في اللحظة الأخيرة -كما يفعل دائما- أن جسداً بهذه الفخامة لا ينبغي أن يختفي في قميص. يطفئ السيجارة، ويجذب القميص. يكوره في يده ويلقي به أسفل السرير، ويستدير إلى المرأة، ويكون عليه أن يبذل مجهوداً كبيرًا للسيطرة على تأوهاتها، حتى لا ينتبه إلى صوتها الجالسون في الصالة بأنفاس محبوسة أمام امرأة شهية وكلب لعَّاق.

لم تر هذه الشوارع الموحشة
عندما كانت تضيق بموكب النساء
كاشفات الأهلَّة للهواء في تحد عجيب

ستراه مسرعاً نحوك يتوكأ على عصاه، بشعره ولحيته المخضبين بغير إتقان. وسيرفع العصا في وجهك، لا تخف؛ فهذه طريقته دائماً، سيبادرك كصديق حميم فارقك منذ لحظة، ويصل حديثاً انقطع للتو: أنا لا أوافقك، ماذا يمكن أن يصنع الرجل منا مع فتاة نحيفة كغصن جاف؟! المرأة يا صديقي التي تستحق أن يقال لها امرأة، البيضاء اللينة، مليئة العجز، عظيمة الهلال، الخبيرة بفنون اللذة.

ثم يُنزل عصاه ليتمكن من التوازن، ويستطرد معترضاً:

- لا.. لا، لا تحاول أن تقنعني بغير ما جربت. أنت لن تعرف ما عرفت. ولن تجرب ما جربت.

ثم يضحك في سخرية كاشفاً عن فم خال:

- الخفة؟! من قال لك إن الخفة في النحافة فقط؟! تعرف! إن أكثر من عرفت كُنَّ من البدينات، وتذهلك قدرتهن علي الحركة والرهز، مع الليونة والدفء؛ هل نحن في حاجة إلى تكسير الضلوع؟ لا تحاول يا صديقي. أنت! كم مضى لك من الوقت هنا؟.. ياه!! وتتحدث معي؟! عندما يصير لك مثل عمري ستدرك كل شيء.

كم؟! وكيف أعرف؟ ولكن يكفي أن أقول لك إنني رأيت ربة التهتك الساحرة في آخر تجل لها. أنت لم تر شيئاً من حفلات اللذة الصاخبة التي كانت تجتاح المدينة احتفالاً بجولة الإلهة المهيبة. تخيل نفسك وسط سبعمائة من العذراوات الخبيرات بأكثر مما تعرف بائعات الهوى المحترفات، يتسابقن عليك لافتراعهن: لم تر هذه الشوارع الموحشة عندما كانت تضيق بموكب النساء كاشفات الأهِلّة للهواء في تحد عنيد.

وفجأة يرسل بصره إلى البعيد، ويتهلل وجهه المتغضن، يصيح: أخيراً! يفتح ذراعيه ويحتضن الهواء، يترك العصا المعلقة في الهواء تسقط، يمد يده إلى جيبه، يخرج علبة سوداء، يضغط قفلها فينطلق منها سلاح صناعي منتصب وقد زين رأسه بشرائط ملونة، يرقصِّه في الهواء ويضرب الأرض بساقيه المقوستين، ويهتز بعنف يتصاعد ثم يخمد، يضغط السلاح فيتقوس ويدور ليختفي مرة أخرى في العلبة المستديرة. يدسها في جيبه، ويخرج منديلاً يجفف به عرقه، ثم ينحني ليلتقط العصا، يثبتها في الأرض ويرتكز عليها بكلتا يديه.

بعد أن تهدأ أنفاسه تماماً يبادرك بصوت مستريح:

- ماذا كنا نقول؟ آه.. أنا معك، النحيفات شبقات أكثر، وخاصة السمراوات. مذاق آخر طبعاً، الرمان الصلب العنيف، الأعمدة المشدودة، الأهِلّة الملتهبة التي لا هي بالجافة ولا بالزلقة.

سيتنهد طويلاً، ويهرش رأسه، ويطلب سيجارة سيكون عليك أن تشعلها له، فيجذب نفساً عميقاً، ويلمح سيارة مارقة، بحركة سريعة سيختفي وراءك، يتلصص يمينا وشمالاً، وعندما يلفحكما هواؤها. يعود إلى مكانه في مواجهتك، يعلق: آخر مغامراتي كانت صعبة، زوجها يطاردني في كل مكان.

سيجذب نفساً جديداً، ويقول: بصراحة شديدة، أنا فعلت كل شيء، وإذا سألتني الآن ماذا تفضل؟ سأقول لك: الوحدة، قل بصراحة، ألم تجرب أن تؤدي لنفسك تلك الخدمة؟ ما داعي الخجل هنا، الوحدانية حالة يكون فيها الإنسان كاملاً، سيد نفسه. أليس السعي للمرأة في الأصل سعي للإكتمال ؟ ولكنه سعي خائب لا يتم حتى يعود إلى النقصان، ثم السعي من جديد. صدقني ستكون قريبا من نفسك، ستكون نفسك، وستكون لذتك آمنة، وتوقيتها بيدك أنت.
مجة أخري من السيجارة، يواصل بعدها: -لا.. لا، إذن جربت نوعك.. هه؟ شيء لم أستلطفه أبداً، في سنواتي الأولى هنا، كنت مضطراً، لم يكن لي مأوي أو عمل. أقلعت عنه منذ عرفت الباب الصحيح لدخول المدينة، يضحك.
- الأفضل من هذا كله -صدقني- نسيانه، تترك سلاحك علي أبواب المدينة، البعض جرب هذا، وهم قلة تمتلك وضوحاً في الرؤية منذ البداية، يحددون هدفهم منذ الاستجابة لنداء المدينة الغامض، ماذا يريد غريب من مدينة موحشة كهذه؟ الثروة. أليس كذلك؟ بعض المال يُحسِّن به أوضاع حياته في وطنه عندما يعود، إذن ليحفر ويدفنه تحت علامة بارزة، ويسترده في طريق عودته.
يلقي بالسيجارة ويضحك بنزق ويواصل: ولكنني شخصياً لا أنصح بهذا، بعضهم تركه وضل المكان، ولا يزال يبحث إلى اليوم. ولماذا هذا العناء أصلا؟ ولماذا لا تتمتع، هل يعرف أحدنا متى يعود؟ الخوف من الخطر؟! ما هذا الهراء؟! مدينة تعج باللذة، حياتها اللذة، الخطر وهم لا يعشش إلا في رؤوس الغرباء، أنا دخلت قصوراً لا تعد ورأيت كيف أن هذا الأمر طبيعي جدًا ومتفاهم عليه تماماً كتقسيم العمل.
طبعاً مثلك يمكن أن يخاف، إقناعك صعب، إذن سأدلك على أنواع من اللذة الآمنة، تعال، تعال. ثم ينظر إلى ساعته؛ لا، ليس الآن، في النهار لن تري شيئاً، أجسادهن البللورية لا تظهر إلا في العتمة، ضوء الشمس يجعل التعرف عليهن مهمة شاقة، إذن سأصف لك المكان: هي هناك في السفح، تحت قدمي الربة، حديقة شاسعة، وفي ركن منعزل منها مسبح كبير، حوله شقراوات دعجات، يعشن في قطيع، يتقافزن في الماء، ينمن على الأعشاب وقد رمين بين مفارق الأثداء جدائل تمتد لتنتهي بذؤابة كزهرة لوتس تغطي الأهِّلة المتوهجة، وبينهن أميرتهن يداعبن أعضاءها.
يضحك ساخراً: تصور؟ الكثير يخشونهن باعتبارهن مكتفيات بنوعهن، شرسات، والأمر ليس كذلك أبداً، انهن يتسلين فقط انتظارًا لقادم جسور، يفرق جمعهن، وأنصحك: لا تحمل نفسك أبداً علي وهم اكتفاء المرأة بنوعها. هل يغني الاحتكاك البائس بين هلالين عن سلاح نافر يملأ الحفرة ويمهد الأرض؟ هه؟ هل يُرقَّع الخرقُ بالخرقِ؟!
أتحب أن تعرف ما حدث لي في أول زيارة لحديقة اللذة؟، شعرك الأسود هذا سيشيب لو علمت ما قالته لي الأميرة.. اسمع.. عصاي هذه افترعت أكثر من سبعة آلاف عذراء، لم يكن مسموحًا لي أن أقوم عن الأميرة، والوصيفات العذاري الشبقات ماذا أصنع معهن؟ هه؟ قل أنت!
ثم يلقي عصاه ويبرز صدره ويثني ذراعيه، أتراني ضعيفًا إلى الحد الذي يُلجئني إلى عصا أتوكأ عليها؟!
ويعود، ينحني مرتعشاً يلتقط العصا، ويقول: لكن اسمع! أنا أكثر منك خبرة، وأنت صديق، انج بنفسك، لذة هذه المدينة ظمأ لا يرتوي، احتراق لا يبرد، ليست لذة، إنها العذاب. من السهل أن

تدخل قصر امرأة شبقة، ولكن سيلقى بك في اليوم الأول من شيخوختك، عارياً، تعاني بؤس الوحدة.
ثم يجهش في تأثر لن تملك معه إلا أن تحتضنه كطفلك، وسيسألك ناشجًا عن الطريق إلى المتاهة: "إنها الملاذ الأخير" وسيشد على يدك طويلًا ويجذبك أكثر ليقبّلك إذ يتأهب للانصراف فاحترس، لأنه في تلك اللحظة لن يعرف أيكما هو.